مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـد :

فإن أصـدق الحـديث كـتـاب الله ، وأحسن الهـدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أما بعـد :

فالقرآن هو كلام الله، وهو أحسن الكلام، هو حبل الله المتين والذِّكر الحكيم والصراط المستقيم، أنزله سبحانه على نبيه ﷺ وتعبدنا بتلاوته، من عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم، لا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تزيغ به الأهواء، من تركه من جبار قصمه الله، أنزله سبحانه لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين .

قال : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا كان هذا شأن الجبل فكيف يكون حال المكلفين ؟!، وهل يليق بهم العبث والمزاح واللعب أثناء سماع الآيات البينات؟، لقد بلغ التدبر في آيات الله كل مبلغ، فكان الواحد يمر

بقوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فيسجد ثم يقول لنفسه: هذا السجود فأين البكاء، وسمع أبو الدحداح قوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة :٢٤٥]، فقال: أوَ يَقبل الله منا القرض، فتصدق ببستان له فيه ستمائة نخلة. ثم ذهب لزوجته يخبرها، فقالت: بشَّرك الله بالخير، ولم تلطم خدًا أو تشق جيبًا، أو تقول له ضيعتنا، بل عمدت إلى صغارها، تخرج ما في جيوبهم وأيديهم من تمر، لأن البستان قد صار لله تعالى.

وكانوا لربما قرأوا الآية الواحدة طوال الليل يتدبرون معناها، فقد قامت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما الليل كله تردد قوله تعالى: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور : ٢٧-٢٨].

وقام سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ويمر الواحد بالآية تبكيه كما صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما مر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]، سُمِعَ نشيجه من مؤخرة المسجد.

ولم يقتصر ذلك على الراسخين في العلم، بل على حديثي العهد بمعرفة الإسلام، حكى عبد الواحد بن زيد قال: ركبنا سفينة فانكسرت بعرض البحر، فأوفتنا إلى جزيرة، فرأينا رجلاً يعبد صنمًا، فقلنا ما تعبد؟ فأشار لهذا الصنم، وقال: وأنتم ما تعبدون؟ قلنا: نعبد الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، قال: فما دليلكم عليه؟، قلنا: بعث إلينا رسول الله، قال: وأين هو؟، قلنا: قبضه الله إليه، قال: فما علامتكم عليه؟، قال: ترك لنا كتاب الملك، قال: أرونيه، قال عبد الواحد: فدفعنا له مصحفًا، قال: لا أحسن هذا (أي لا يحسن القراءة).

يقول: فقرأنا له سورة من كتاب الله، وهو يبكي ويقول: ما ينبغي لمن كان هذا كلامه أن يُعصى، قال عبد الواحد: فعلمناه من شرائع الإسلام حتى آوانا الليل فنمنا، فقال: أإلهكم الذي تعبدونه ينام؟، قلنا: مولانا حيٌّ قيوم لا ينام، قال: بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام.

يقول عبد الواحد: فتعجبنا له، وبلغنا عبادان فدفعنا له مالاً، فقال: سبحان الله، دللتموني على طريق لم تسلكوه، إني كنت أعبد صنمًا في البحر فلم يضيعني فكيف بعدما عرفته. وهذه القصة الطريفة التي حكاها ابن الجوزي تدل على مبلغ تدبر الرجل وفقهه رغم حداثة تدينه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

خرج هارون الرشيد يومًا من مجلس الإمارة فاعترضه يهودي، وقال له: اتق الله، فنزل هارون من على دابته وسجد على الأرض فقال له أتباعه: إنه يهودي، قال هارون: «اتقِ الله»، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

فكان عملهم ووعظهم وتذكيرهم يدل على عظيم تدبرهم لآيات الله، ومن ذلك لما قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وذهب إليه الناس يهنئونه وامتنع أبو حازم فبعث له سليمان يعاتبه، ويقول له: وجوه الناس زاروني وأنت لم تزرني، فقال له أبو حازم: أنت لم تعرفني قبل هذا وأنا لم أرك قبل هذا اليوم، قال: يا أبا حازم، قل لي: لماذا نكره الموت، قال: لأنكم عمَّرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتخافون أن تخرجوا من العمران إلى الخراب، قال: فما لنا عند الله غداً، قال: اعرض نفسك على كتاب الله، قال: وأين أجده، قال: عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنفطار: ١٣ - ١٦]، وقال: فأين رحمة الله إذن؟ قال: ﴿ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] فهذا التدبر يورث الحزن والفطنة ودقة التمييز بين الطيب

والخبيث والفاسد والصحيح ويجعل الإنسان راغبًا راهبًا كما أنه يفضي إلى رسوخ الإيمان في القلب .

قال ابن القيم – رحمه الله – : الناس ثلاثة : رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له، ليست الآية ذكرى في حقه، والثاني : رجل له قلب حيّ مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، وقلبُهُ مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجُود قلْبِه.

والثالث: رَجُلٌ حيٌّ القلب مستعدٌّ، تُليتْ عليه الآيات، فأَصْغَى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهدُ القلْب، مُلقِي السمع، فهذا القسْمُ هو الذي ينتفِعُ بالآياتِ المتلُوَّة والمشهودة .

فالأول : بمنزلة الأعْمَى الذي لا يُبْصِرُ .

والثاني : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير الجهة المنظور إليها، فكلاهما لا يَراه .

والثالثُ : بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصرَهُ وقابل، وقابلهُ على توسُّط من البُعد والقرب، فهذا هو الذي يراه .

فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور، فاعلم أن الرجل قد يكون له قلبٌ وقادٌ، مليءٌ باستخراج العِبَر، واستنباط الحِكَم، فهذا قلبه يوقِعُهُ على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نُوراً على نُورٍ، وهؤلاء أكمَلُ خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرَة، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسُولُ مُشاهدٌ لَهم، لكن لم يشعُرُوا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل : إن مثل حال الصدِّيق مع النبي ﷺ كمثل رَجُلين دخلا داراً، فرأى أحدُهُما تفاصيل ما فيها وجزئياتها، والآخر وقعت يداه على ما في الدار ولم يرى تفَاصيلها ولا جُزئياتها، لكن عَلِمَ أن فيها أُمُوراً عظيمة، ولم يُدْرِكْ بصرُهُ تفاصيلها،

ثم خرجا فسأله عمَّا رأى في الدَّار فجعل كلما أخْبَرهُ بشيءٍ صدَّقهُ، لما عنده من شواهد، وهذه أعلى الدرجات الصِّديقيَّة، ولا تستَبْعدُ أنْ يَمُن اللهُ المَنَّانُ على عَبْد بمثل هذا الإيمَانِ فإنَّ فَضْلَ اللهِ لا يدَخُلُ تحْتَ حَصرٍ ولا حُسْبَانٍ.

فصاحب هذا القلب إذا سَمعَ الآيات وفي قلبه نُورٌ من البصيرة ازداد بها نُورًا على نوره، فإن لم يكن للعبد مثلُ هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والوابلُ والطَّلُّ في جميع الأعمال وآثارهَا وموجبَاتها، وأهلُ الجنَّة سابقُون مُقرَّبُون وأصحابُ يمينٍ، وبينهما في درجات التفصيل ما بينهُما؟.

وقد وردت الآيات تستحث العباد على التدبر،

■ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

■ وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [المؤمنون : ٦٨] .

■ وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص : ٢٩] .

■ وقال سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد : ٢٤] .

كما وردت السُنن توضح قيمة التدبر :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بتُّ عند خالتي ميمونة فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رَقَدَ، فلمَّا كان ثُلُثُ الليل الآخر قَعدَ فنظَرَ إلى السماء فقَالَ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران : ١٩٠]، ثم قام فتوضَّأ واستَنَّ فَصَلى، إحدى عشرَةَ ركعةً ثُمَّ أذَّن بلالٌ فصلَّى ركعتين ثم خرج فَصَلى الصُّبح » [متفق عليه] .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : صلَّى رسول الله ﷺ يومًا صَلاةً فأطال فيها، فلما انصرفَ قُلْنَا ـ أو قالوا ـ : يا

رسولَ الله أطَلْت اليوم الصلاة، قال : « **إني صَلَّيْتُ صَلاةَ رَغْبةٍ ورهبة، سألتُ الله عز وجَلَّ لأمَّتي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ورَدَّ عليَّ واحدة، سألتُهُ ألا يُسلطَ عليهم عدُوًّا منْ غيرهم، فأعطانيها، وسألتُهُ أن لا يُهْلِكهُمْ غَرَقًا، فأعطانيها، وسألته أن لا تجعل بأسهم بينهم، فردَّها عليَّ** » .

[رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : « **صليتُ مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فافتتح بالبقرة، فقلتُ يركع عند المئة، ثم مضى، فقلتُ يُصلي بها في ركعة، فمضى، ثم افُتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرآها يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ ...** » [رواه مسلم] .

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ : « **اقرأ عليَّ** »، قُلْتُ : أقْرَأُ عليك وعليك أُنزل؟، قال : « **فإني أحِبُّ أن أسمعهُ من غيري** »،

فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١] قال: «أمسك»، فإذا عيناهُ تَذْرِفان»

[رواه البخاري ومسلم] .

وعن عائشة رضي الله عنها زوْج النبي ﷺ قالتْ: «كان أوَّلُ ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثْلَ فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حِراءَ يتحنَّث فيه - وهو التعبد - اللَّيالي أولاتِ العَدَدِ » [رواه البخاري ومسلم].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: « ركعتان مُقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا تلا هذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]، قال: « بلَى يارب، بلى يارب » .

وعن طاووسٍ قال: «قال الحواريُّون لعيسى ابن مريم:

يا رُوحَ الله، هل علَى الأرض اليوم مِثْلك ؟، فقال نَعَمْ، من كان منطقه ذِكرًا، وصمْتُهُ فكرا ونظرهُ عِبرةً، فإنه مِثْلي » .

قال عبد الله بن المبارك : « مرَّ رجُلٌ براهبٍ عند مقبرةٍ ومزبلة، فناداهُ فقال : يا رَاهبُ، إن عندك كنزيْن من كنوز الدُّنْيَا، لك فيهما مُعتبرٌ، كَنْزُ الرِّجال، وكَنْزُ الأموال » .

وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال : « لأن أقرأ في ليلتي حتى أُصبح بـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ و ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾، لا أزيد عليهما وأتردَّدُ فيهما وأتفكر أحَبُّ إليَّ من أن أهُزَّ القُرآنَ ليلتي هزاً ـ أو قال ـ : أنثُرُهُ نَثْرًا » .

قال الفُضيل : « إنما نَزَل القُرآنُ ليُعملَ به فاتخذ الناس قراءَتُهُ عَمَلاً، قيل : كَيْف العملُ به ؟، قال : ليُحلُّوا حَلالَه، ويُحَرِّمُوا حرامهُ، ويأتمِروا بأوامره، وينتهُوا عن نواهيه، ويَقفُوا عند عجائبه » .

قال ابنُ القيم : أما التأمُّلُ في القرآن فهو تحديق نظر

القلْب إلى معانيه ، وجمع الفكر على تدبُّره وتعقلُّه وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر، قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد: ٢٤] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون :٦٨]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾ [الزخرف : ٣] .

وقال الحسن : « نَزَل القرآن ليُتدبَّر ويُعْمل به، فاتخذُوا تلاوته عملاً » .

فليس شيءٌ أنفع للعبد في مَعَاشه ومَعَاده وأقْرَبَ إلى نجاته من تدبُّر القُرآن، وإطالَة التَّأمُّل، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطْلِعُ العبد على مَعَالم الخيْر والشرِّ بحذافيرها، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغايتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَنقل في يده مفاتيح كُنُوز السعادة والعُلُوم النافعة وتُثبتُ قواعد الإيمَان في قلبه،

وتُشيِّدُ بُنْيَانَهُ، وتُوطِّدُ أرْكانَهُ، وتُريه صُورَةَ الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار في قَلْبه، وتُحْضِرُه بين الأُمَم وتُريه أيَّامَ الله فيهم وتبصِّرُهُ مواقعَ الْعِبَرِ، وتُشْهِدُهُ عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءَهُ وصفاتهُ وأفعالَهُ، وما يُحبُّه وما يُبْغضُهُ، وصِرَاطَهُ الْمُوصِّلَ إليْه، وما لسَالكيه بَعْدَ الوُصُول والقُدُوم عليه، وقَواطِعَ الطَّريق وآفَاتها، وتُعرفُهُ النَّفسَ وصفاتها، ومُفسدات الأعمال ومُصَحِّحاتها، وتُعرِّفُه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالَهم وسيماهُم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشَّقاوَة، وأقسَام الخلق واجتماعهُم فيما يجتمعُون فيه وافتراقَهم فيما يفْتَرِقُون فيه .

وبالجملة : تُعرِّفُهُ الرب المدعُوَّ إليه، وطَريق الوُصُول إليه، وما لَهُ مِنْ الكَرَامَة إذا قدم عَلَيْه .

وتُعرِّفُه مقابل ذلك ثلاثة أخرى : ما يدعو إليه الشيطانُ، والطريق المُوصِلَةَ إليه، وما للمُسْتَجيب لَدَعْوته من الإهانة والعذاب بعد الوُصول إليه .

وفي تأمُّل القرآنِ وتدبُّره وتفَهُّمِه أضْعَافُ أضْعَافِ ما ذَكَرْنَا من الحِكَمِ والفوائد .

عباد الله : القرآن ليس كتاب مطالعة ولا جغرافيا، بل هو كلام رب العالمين، فتدبروه ولا تنثروه نثر الرمل، ولا تهزوه هز الشِّعر، قفوا عند عجائبه، حركوا به القلوب.

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

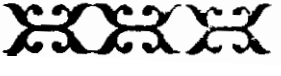

obeikandl.com